من حكايات الشعوب

سيدي الحلوي

حكاية عربية (الجزائر)



من حكايات الشعوب

حكاية عربية (الجزائر)

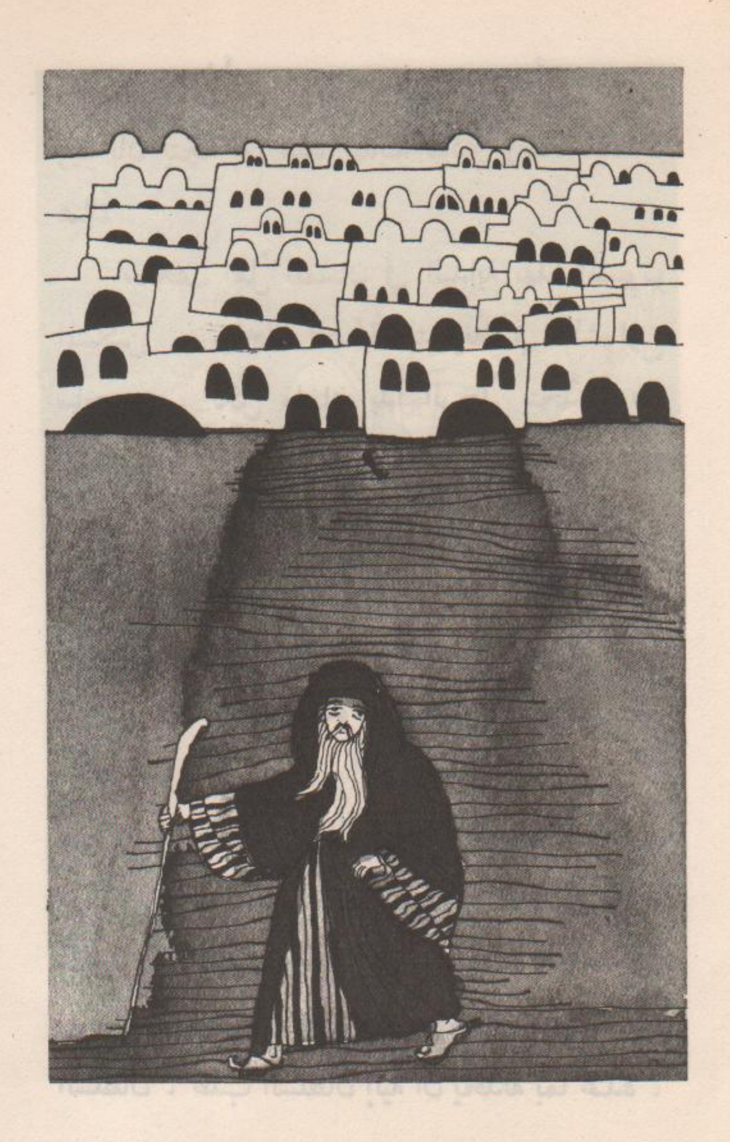


سيدي الحلوي



دار الفتى العربي

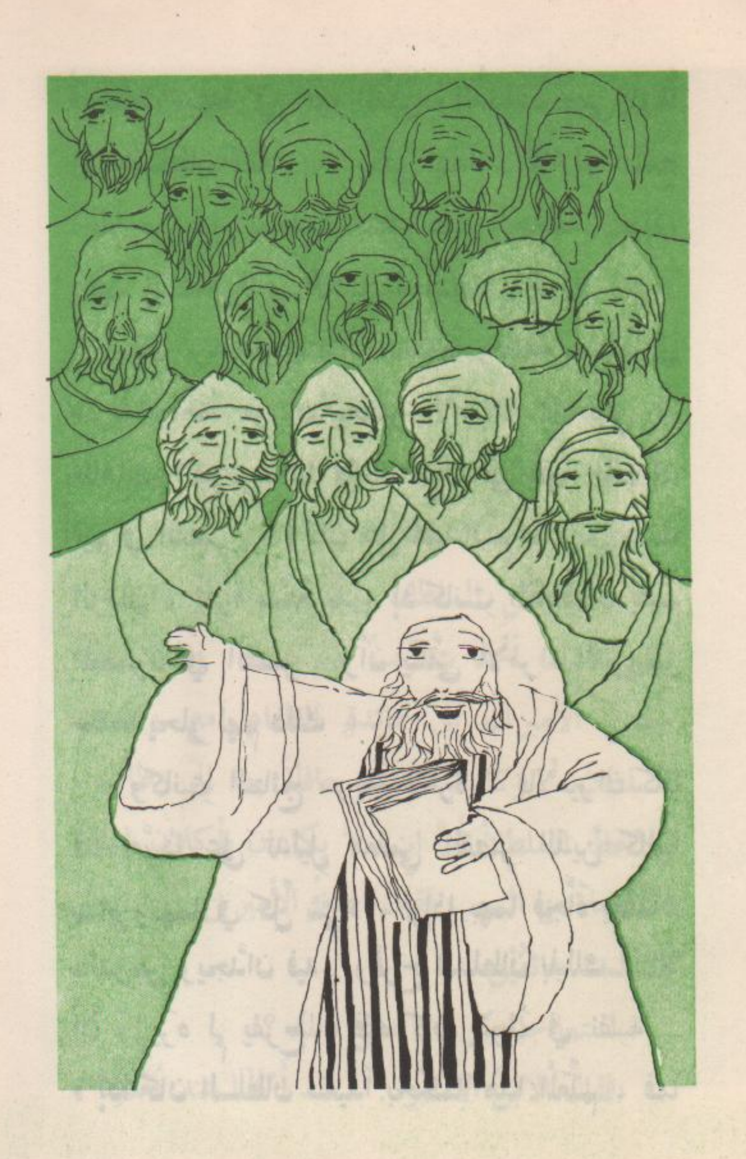
في مدينة تِلِمْسَان بالجزائر ، يُردِّدُ الناسُ دائماً هذه العبارة : « أيُّها الحارسُ ، أَغْلِقِ الأبوابَ واذْهَبْ مُصَاحَباً بالسلامة فأَبوابُ اللهِ مفتوحةٌ لكلِّ الناسِ على الدوام » . وينسبُ الناسُ هناكَ هذه العبارةَ إلى « سيدي الحَلَوي » وهو وليٌّ يأتي الناسُ لزيارةِ ضريحهِ بتِلِمْسَان من جميع أنحاءِ الجزائر . وتعودُ حكايةُ « سيدي الحلوي » إلى ما يَقْرُبُ من ستمائة أو سبعمائة سنة . وهي تتحدَّثُ عن الحكمة والحَسَد والظُّلْم والجَزَاء العادِل . وتقولُ الحكايةُ إنَّ « سيدي الحلوي » كان في شبابه قاضياً بمدينة إشبيليةَ أيامَ الحُكْم العربيِّ للأندلس ، عندما كانت تلكَ البلادُ مركزاً للثقافة الإسلامية . وكانَ مَنْصِبُ قاضي اشبيلية من أكْبر المناصبِ . لكنَّ « سيدي الحلوي » فاجأَ الناسَ ذاتَ يومٍ باعتزال مَنْصِبه ، ومضى دونَ أَن يودِّعَ أُسرتَه واصدقاءه ، واتَّخَذَ بدَلَ ثيابِه الفاخرة ثيابَ مُتَسَوِّلٍ ، وراحَ يضرِبُ في الأرضِ حتى وصلَ إلى مدينة تِلِمْسَان .



وَعَرَفَ الناسُ أَن « سيدي الحلوي » قد تلقَّى نداءً من رِّبهِ بأن يتَّجهَ إلى هذه المدينةِ ليؤدي رسالةً تنتظرُه هناكَ .

استخفَّ اهلُ تلمسان في البدايةِ بهذا المتسولِ المسكين ، وأخذَ الصِبْيَةُ يتبعونَهُ في الشوارع ساخرين ، لكن ما إن بدأَ الرجلُ يتحدَّثُ معَ الناس حتى كَسِبَ احترامهم ، فقد كان حديثُه يَنْطقُ بالعلمِ والحكمة ، وذاعَ صِيتُهُ في البلادِ ، وتقاطرَ العلماءُ من جميع أنحاءِ الجزائرِ إلى تلمسانَ لِمُنَاظَرةِ هذا الحكيمِ الفقير. واعتقدَ الناسُ أنَّ « سيدي الحلوي »يستطيعُ أن يحقِّقَ حتى المعجزات .

ووصلتْ أخبارُهُ إلى سلطان تلمسان ، فطلبَ إلى وزيرِهِ ان يُحْضِرَهُ خلالَ ساعةٍ واحدة . ووجدهُ الوزيرُ في السوق وقد تحلَّق الناسُ حولَه يستمعونَ إلى عِلمه وحكمته ، فلما صارَ « الحلوي » في حَضْرَةِ السلطان ، طلبَ السلطانُ إليه أن يُحَدِّثه بما عندَه ،



فَتَحَدَّثَ ساعةً في أمور الدِّين والدُّنيا ، حتى أومأ اليهِ السلطانُ قائلاً : « يكفي هذا ، فأنا لم أسمعْ أَحَداً من قبلُ يتحدثُ بمثل هذه الحكمة . وإني أَعَهَدُ إليكَ بولديَّ الاثنين لتُعَلِّمَهما . »

قال « الحلوي » : « سمعاً وطاعةً ، إنما ليَ شرطٌ واحدٌ هو أن يَحْضُرَ الأميرانِ إلى بيتي في ساعات الدرس فأنا لا أستطيعُ على أيِّ حالٍ أن أُقيمَ في القصرِ . » وكان مثلُ هذا الشَّرطِ ، في ذلك الزمانِ ، أمراً مُستَغْرَباً ، إذ كانتِ العادةُ أن يُقيمَ المُعَلِّمُونَ في القصر ، وأن يتلقَّى الأمراءُ الدروس عندما يحلو لهم ذلك .

وكانتِ النتائجُ سريعةً باهرة ، فالأميران كانا قد تعوَّدا على تدليلِ معلمي القصرِ الذينَ كانوا يسايرونهما في كلِّ شيء ، وإذا بهما فجأَةً يهتمَّان بالدرسِ ويجدَّان فيه . وفَرِحَ السلطانُ بذلك ، الا أَنَّ وَزِيرَه لم يفرحْ . فقد كان يقولُ في نفسِه : « إذا كان السلطان سعيداً بحِكمة هذا المُعَلِّم ، فما

الَّذي يمنعُهُ من أن يعيِّنَه وزيراً بدلاً مني ؟ » وبدأَ يبذُلُ كلَّ جَهْده ، كي يَبْذُرَ بذُورَ الشكوكِ في نفس السلطانِ حولَ حِكْمَةِ هذا المعلِّم . كانَ يقولُ مثلا : « إنَّ الحلوي هذا أبرعُ مُعَلِّمٍ عرفتُهُ ، لكنْ يَعْلَمُ الله وحدَهُ إن كانت حِكْمَتُهُ هذه من عندِ اللهِ أو من عند الشيطان . » أو يقول : « ماذا ستفعل يا مولاي السلطانُ إذا وجدتَ ابنيك ذاتَ يومٍ وقد أَصبحَا من أتباعِ الشيطان ؟ »

ولم يكُنِ السلطانُ يهتمُّ بما يَقُولَهُ وزيره ، لكنَّ الشكَ أخذَ يتسرَّبُ إلى نفسه . وذاتَ يومٍ جلس الأميران إلى مائِدةِ الطعامِ مع والدِهما السلطانِ ، وكانتِ المائدةُ حافلةً بما لذَّ وطاب . ولاحَظَ السلطانُ أَنَّ ابنيه لا يكادان يأكلان شيئا . فسألهما عن السبب فقالَ أصغرُ الأميرين : « الحقُّ أَننا لسنا جائعَيْنِ . »

ـ « لستما جائعَيْن ، ما معنى ذلك ؟ »

فقالَ الابنُ الأكبرُ : « لقد أَكَلْنا عند مُعَلِّمِنا ،





قدَّمَ لنا طعاماً لم نذقْ في حياتنا أطيبَ منه . » غَضِبَ السلطانُ وقالَ : « هل تعني أن هذا المُعَلِّمَ الفقيرَ يُمْكِنُ ان يقدِّمَ طَعَاماً أفخرَ وأطيبَ مما يُقدَّمُ في قصري ؟ »

فَتَجَرَّأَ الابنُ الأكبرُ وبدأَ يفسِّرُ الأمرَ لأبيه قائلاً :

« حقاً إنَّ في قصرنا أفخَرَ ما في السوق من طعامٍ . ولدينا أمهرُ الطباخينَ في البلاد . لكنَّ معلِّمَنَا لا يشتري شيئاً من السوق ، ولا يطبخُ شيئا ، إنه يحكُّ بعض الدهان من حائِط غرفته ويقدمه لنا ، فإذا به ألذُّ مَذَاقاً من العسل ومنَ البلح الطازَج . وهو يقدِّمُ لنا على هذا الطعامِ مكافأَةً على حُسْنِ ادائِنَا للدَّرسِ . »

وقال الابنُ الأصغرُ : « الأغربُ من ذلك أن هذا الطعامَ ليسَ لذيذاً فقط ، إنما هو فوقَ ذلك يمنحُنا قوةً فائقة . لا أذكُرُ أنني بعد هذا الطعامِ أحسستُ بالتَّعب أو بالملل من الدرس . » ولم يقلِ

السلطانُ شيئاً . لكنه بعد انصرافِ الأميرين اختَلَى بوزيرِهِ وسأَلَهُ : « ما رأيُكَ في هذه الحكاية ؟ » ووجدَ الوزيرُ الحاسدُ الفرصةَ سانحة ، فقال : « هذا ما كنتُ أخشاه ، إن هذا لا يمكنُ أن يكونَ إلا من فعل الشيطان . ولا شكَّ ان الأميرين في خطرٍ عظيم . » تردَّدَ السلطانُ قليلاً ثمَّ قال : « هذا الرجلُ ، إما أنهُ واحدٌ من أولياء الله الصالحينَ وإما أَنه أحدُ أتباع الشيطان . » فقال الوزير : « لا ، ليس ولياً ، فأولياءُ الله لا يتصرفونَ على هذا النحو . ما هذه إلا فتنةُ الشيطان . » فقال السلطان : « لا شكَّ أَن هذا من أمور السحر ، غير أَن السحر قد يكونُ خيراً وقد يكون شراً . » ردَّ الوزير : « اقسمُ أنه سحرٌ ضارٌّ ، إن هذا الرجلَ هو ابنُ الشيطان ، بل ابنُ ابليسَ نفسهِ ، وليس من خاسرٍ في النهايةِ سوى الأميرين . » تنهَّدَ السلطانُ وقالَ : « ينبغي أَن أُقِرَّ بأَنَّك على صواب ؛ لقد خَدَعَنا هذا الرجلُ ويجبُ ان نَتَخَلَّصَ منه قبلَ ان يُسَبِّبَ مزيداً من

الأذى . » وأصدر السلطانُ أمراً بالقبض على « الحَلَوي » ، وَحَمْله إلى خارج سورِ المدينة ، وقَطْعِ رأسِهِ في اليوم نفسِهِ ، وتَرْكِ جُثَّتِهِ للذئاب .

وكانت تلك العقوبةُ حينئذٍ عقوبةَ المجرمينَ الكبار . وتكفَّلَ الوزيرُ بتنفيذ العقوبة قبلَ أن يُغَيِّرَ السلطانُ رأيَهُ .

وفي الليلة التالية كانَ حارسُ أبواب المدينة يطوفُ بها بعدَ الغروبِ كعادتِهِ كلَّ يوم ، وهو يردِّدُ نداءَهُ المعتاد : « ادْخلوا إلى المدينة ، ادخلوا إلى المدينة قبلَ ان تُغْلَق الأبوابُ . » وعندما وصلَ إلى « باب علي » الذي أُعدِمَ الحلوي بالقرب منه ، سمعَ صوتاً يناديه :

« أيُّها الحارسُ ، أيُّها الحارسُ ، أَغْلِقِ الأبوابَ الآنَ ! وعدْ إلى بيتك مُصَاحباً بالسلامة ، فلم يبقَ أحدٌ خارجَ المدينةِ هذه الليلةَ سوى « الحلوي » الذي أُعْدِمَ ظُلْماً . »

وتكرَّرَتِ الحكايةُ نفسُها سبعَ ليالٍ متوالية .



فقرَّرَ الحارسُ أَن يُبَلِّغَ السلطان ، وذهب يستأْذنُ في مقابلته دونَ أن يُفْضيَ إلى أحدٍ بِسرِّه ؛ وَمَثَلَ بين يدي السلطان ، وقالَ : « مولاي ، وَقَعَتْ مُعْجِزَةٌ ! عندَ بابِ علي ، كلَّ ليلةٍ ، أسمعُ صوتاً منَ العالمِ الآخر . » ورَوى القصةَ فنظرَ السلطانُ إلى وزيرِهِ وسأَلَهُ : « لو صَحَّ هذا فمعناه أَنَّكَ خَدَعْتَنِي ، لأن الصوتَ لا يمكنُ أن يكونَ إلا صوتَ « الحَلَوي » ، وإذا كان يتحدثُ من العالم الآخر ، فلا شكَّ أَنه من أولياء الله . » ثم التفتَ إلى الحارس وقال له : « نلتقي عندَ بابِ عليٍّ عندَ غروبِ شمس اليوم في الموعد المعتاد . »

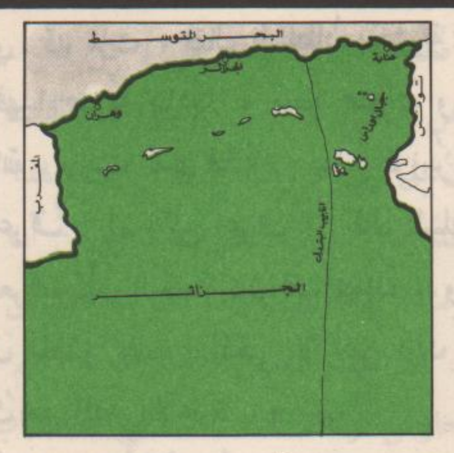
وما إِنِ انتهى الحارسُ من ندائهِ اليومي في الموعِد نفسه ، حتى ارتفعَ صوتٌ عميقٌ ، عرف فيه السلطانُ صوتَ « الحلوي » قائلاً : « أَيُّها الحارس أَغْلِقِ الأبوابَ الآن ! وعُدْ إلى بيتك مُصاحَباً بالسلامةِ ، فلم يبقَ أحدٌ خارجَ المدينةِ هذه الليلة سوى « الحلوي » الذي أُعْدِمَ ظلماً . »

قال السلطانُ : « لقد سمعتُ ما يكفيني ، إنه هو . »

وصَاحَ الوزيرُ فَزَعاً : « لا يمكنُ ، إن « سيدي الحلوي » قد مات. » فقال السلطانُ بخشونةٍ : « ومع ذلك فهذا صوتُه ينادينا ، وهو صوتُ وليٍّ من أولياء الله ، وأنت الذي قَتَلَتَهُ . » صاحَ الوزيرُ : « لم أكنْ أعرفُ ! لم أكن أعرف . » قالَ السلطانُ : « لم تعرفْ لأنَّ الحَسَدَ كان قد أعماكَ ، والعدلُ أَنْ تَنَالَ المصيرَ نفسَه ، لكني لا أظنُّ أنك سوف تتحدَّثُ من الدارِ الآخرة . »

وأمرَ السلطانُ بِقَطْعِ رأس الوزير في تلك الليلة. ولم يَعُدْ أحد يسمعُ صوتَ « سيدي الحلوي » . وأمر السلطانُ بِجَمْعِ عِظامه المتناثرة قربَ « باب علي » ، ودَفْنِها في ضريح يليقُ بمقام الولِيِّ الحكيم ، وبقي نداؤه قولاً مأثوراً بين الناس في تلمسان ، وقد أُضيفَ إِليه : « فأبوابُ الله مفتوحةٌ لكلِّ الناسِ على الدوام ؛ وهي أبوابُ الحكمة والمحبة والعدل . »

عن الجزائر



بلاد عربية تقع وسط أقطار المغرب العربي حيث تونس وليبيا شرقها، والمغرب وموريتانيا غربها، ويحدها البحر المتوسط من الشمال ومالي والنيجر من الجنوب.

مساحتها: ٢٣٢٢١٦٤ كم²

سكانها: ٢٠,٠٠٠,٠٠٠ عدد السكان التقريبي.

عاصمتها: الجزائر.

هي من الدول المصدرة للنفط، وفيها زراعة متطورة الآن بالتصنيع الواسع وتطوير مركزها التجاري الهام.

استعمرتها فرنسا عام ١٨٣٠ م وقررت ضمها إليها. ولكن الشعب الجزائري قاوم على مدى عشرات السنين ثم أعلن ثورته المسلحة عام ١٩٥٤ وتكللت بالانتصار عام ١٩٦٢ بعد أن قدمت مليون شهيد. فقامت جمهورية الجزائر الشعبية المستقلة.

من حكايات الشعوب

مجموعة منتقاة من قصص الشعوب ، نتعرّف من خلالها على جانب من التراث الإنساني الفولكلوري ، وعلى أجمل القصص التي ابتكرها خيال الإنسان ... هذا بالإضافة إلى معلومات عن البلد وموقعه من خريطة العالم ...

صدر من هذه السلسلة :

طباعة : مؤسسة دار الريحاني
ص.ب ١٢/٥٢٧٨ ـ تلكس RIDCO 41127 LE بيروت

الطبعة الخامسة ، بيروت ـ ١٩٨٥



كورنيش المزرعة . بناية الترك . تلفون ٣٠٤١١٠ . العنوان البرقي : دافتشر . بيروت . لبنان